أشكال التراث في ديوان "البحر يقرأ حالته" لعلي ملاحي

د. صالح الدين ملفوف
جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة

مُلخَّصُ البَحثِ

[تسعى هذه الورقة البحثية الموسومة بعنوان: أشكال التراث في ديوان "البحر يقرأ حالته" لعلي ملاحي، والتي تندرج ضمن المحور الثالث من محاور هذا المحفل العلمي، إلى إماطة اللثام عن كيفية تعامل الشاعر مع رموز التراث وأشكاله المختلفة في نصوصه الشعرية المعاصرة التي حفل بها ديوانه، وقد ألفينا من خلال قراءتنا النقدية لهذا الديوان الشعري ثراء تراثيا منقطع النظير، تراوح مابين: التراث الديني، والتراث التاريخي، والتراث الأسطوري، والتراث الشعبي، مما يؤكد تشبع الشاعر بالروافد التراثية المختلفة، وموقفه الصريح من العودة إلى التراث وتوظيفه في قصائده المعاصرة، لتشكل هذه الأخيرة فسيفساء شعرية يمتزج فيها عبق الأصالة بروح المعاصرة.]

مقدمة:

يُعَدُّ توظيف التراث في الشعر من أقدم الظواهر الفنية التي اتسم بها هذا الجنس الأدبي، فتوظيف التراث شعريا قديم قِدَمَ الشعر نفسه، بيد أن الجِدَّةَ فيه تكمن في التوظيف المتميز بالتفاعل العجيب والأخاذ بين العناصر التراثية المشَكِّلَةِ للنص الشعري، وأغلب التجارب الشعرية التي جمعت بين عناصر التراث المختلفة، استطاعت أن تتجاوز الطابع القديم لهذه الأخيرة، كما استطاعت أن تجعل منها تجارب جديدة عابقة بِنَفَسِ الحاضر بأبعاده الفكرية والفنية العميقة.

لقد عرف الشعر العربي صنوفا مختلفة من التراث يأتي في طليعتها: التراث الديني الذي سجل حضورا قويا وفعالا في القصيدة العربية، ومن أنواعه نذكر: التراث القرآني والتراث النبوي واستدعاء الشخصيات الدينية، وقد شكل القرآن

الكريم بفصاحته وبلاغته ثروة معرفية وفنية على المستوى التعبيري، «لما يتميز به من خصوصية تستطيع تمثيل انفعالات الشاعر، وقدرته التأثيرية على وجدان المتلقي، لأن المعطيات الدينية بما تقدمه من تفسيرات سحرية للظواهر المتنوعة تلبي رغبة الإنسان في المعرفة.» [1].

إلى جانب التراث الديني، وظف الشاعر العربي التراث التاريخي باستدعاء الشخصيات التاريخية المختلفة، ويتخذ الشاعر من استدعاء الشخصيات التاريخية في النصوص الشعرية «واحدا من مواقف ثلاثة، إما أن يتخذ منها قناعا يبث من خلاله أفكاره وخواطره وآراءه، مستخدما صيغة ضمير المتكلم، وإما أن يقيمها بإزائه ويحاورها متحدثا إليها ومستخدما صيغة المخاطب، وإما أن يتحدث عنها مستخدما صيغة ضمير الغائب.» [2].

تعد الأسطورة من الروافد التراثية الغزيرة التي وظفها الشعراء العرب في إبداعاتهم، وهناك أسباب كثيرة من وراء اعتماد الشعراء عليها، فمنهم من يتخذها «قناعا يعبر من خلاله عما يريد من أفكار ومعتقدات تجنبا للملاحقات السياسية أو الدينية، فشخصيات الأسطورة ستار يختفي خلفه الكاتب ليقول كل ما يريده وهو في مأمن من السجن أو النفي، كما أن استعمال الأسطورة يطرح مستويات مختلفة من التأويل.» [3].

يعتبر الشعر العربي القديم ديوان العرب على مرور العصور والأزمنة، ولما يكتسيه هذا الأخير من أهمية جمة، وجد الشاعر العربي نفسه يستدعي نصوصا شعرية غائبة ليجسد التواصل الإبداعي والفكري، ولهذا ليس من الغريب أن تكون ينابيع أدبنا القديم منهلا عذبا يجد شعراؤنا المعاصرون لذة في الاغتراف منها، ولعل سبب هذا الاستمرار والتواصل يكمن في أن الشاعر المعاصر قد «استقر في وعيه أنه ثمرة الماضي كله، بكل حضاراته، وأنه صوت وسط آلاف الأصوات التي لابد أن يحدُثَ بين بعضها وبعضها تآلف وتجاوب.» [4].

إلى جانب أشكال التراث المشار إليها آنفا، هناك أشكال أخرى تتفاوت في الحضور بحسب نوعية النصوص الموظفة فيها، وبحسب نظرة الشاعر وحاجته إليها، كالتراث الإيديولوجي، باعتبار أن كل نص يحمل أفكارا إيديولوجية تتصل بالمجتمع، والسياسة، وباعتبار أن الأديب تختلجه رؤى ذات شحنات إيديولوجية بقصد أو عن غير قصد، يقوم النص بتحويلها وتصويرها، مما يسمح باكتشافها وإعادة تشكيلها كإيديولوجية عامة في عصر مجتمع معين[5]. وهناك التراث الشعبي، الذي يحوره الشاعر بما يتوافق مع تجربته الخاصة، وما يريد أن يوضحه من خلالها، فالشاعر «حين يوظف شخصية تراثية فإنه لا يوظف من ملامحها إلا ما يتلاءم وطبيعة التجربة التي يريد التعبير عنها من خلال هذه الشخصية، وهو يُؤَوِّلُ هذه الملامح التأويل الذي يلائم هذه التجربة.» [6].

1- توظيف التراث في الشعر الجزائري:

قبل الحديث عن ديوان "البحر يقرأحالته" للشاعر **علي ملاحي** وأنواع التراث الموظفة فيه، قمين بنا أن نعرج على كيفية تعامل الشعراء الجزائريين مع المادة التراثية المتوفرة بين أيديهم، وكيف عكسوا هذه الأخيرة ووظفوها في إبداعاتهم الشعرية.

أ- التراث الديني:

تنبه الشاعر الجزائري -مثله مثل سائر الشعراء العرب- للثراء اللفظي والدلالي الذي ستجنيه قصائده من استدعاء النص القرآني، لأن استقراء القرآن الكريم واستدعاءه يجعل القصيدة حية غنية. ونذكر من الشعراء الجزائريين الذين تفاعلوا مع النص القرآني وعكسوا صوره في قصائدهم: **مفدي زكريا** في قوله:

وَاقْضِ يَا مَوْتُ فِي مَا أَنْتَ قَاضٍ أَنَا رَاضٍ إِنْ عَاشَ شَعْبِي سَعِيدَا[7].

يظهر الشاعر في بيته هذا متأثرا بالأسلوب القرآني الوارد في الآية الكريمة:﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقۡضِ مَا أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾[8]، فمثلما تحيل الآية الكريمة على الثبات في

الدين والوقوف في وجه الطاغوت، يحيل البيت الشعري على هذه المعاني، فالبيت رمز الصمود والتحدي في وجه الاحتلال الفرنسي الذي رمز إليه الشاعر بالموت، والرضا بالقضاء والقدر دليل على الإيمان الكبير في سبيل أن يحيا الشعب حرا أبيا وهذا ما تحيل عليه كلمة سعيد.

ولنا من النماذج الشعرية التي تحيل على اعتماد الشعراء الجزائريين على النص القرآني بيت **لمحمد العيد آل خليفة** يقول فيه:

مَا تُقَدِّمُ نَفْسٌ إِلَى اللهِ مِنْ خَيْرٍ تَجِدْهُ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا[9]

ففي هذا البيت يظهر استلهام الشاعر من قوله تعالى:﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّن خَيرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيرًا وَأَعظَمَ أَجرًا وَٱستَغفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[10]، وهي أمر صريح بالمعروف، وما يُرتجى من مضاعفة للحسنات والخيرات.

من رموز التراث الديني التي اعتمدها الشعراء الجزائريون: الشخصيات الدينية، ومن أبرزها نذكر: الأنبياء، **كنوح** و**عيسى** و**موسى** عليهم السلام، والأصفياء، **كمريم** البتول. يقول **سليمان جوادي** مستدعيا شخصية النبي **نوح** عليه السلام في طول مدة دعوته، وصبره على قومه الذين تمادوا في كفرهم لأكثر من تسعة قرون:

إِنِّي أَنْتَظِرُ مُنْذُ عَهْدِ نُوحٍ
تَعَرَّيْتُ،، جُعْتُ
وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْ حِكْمَةَ المَتَآمِرِ
إِنَّ الذِي فَاتَ مَاتَ
وَقُلْتُ الذِي فَاتَ حَيٌّ[11].

ب– التراث التاريخي:

من الشعراء الجزائريين الذين جعلوا من التاريخ مادة لقصائدهم يلوح اسم أحلام مستغانمي في الأفق، هذه الأخيرة التي تعود لشخصية أدبية تاريخية هي **امرؤ**

القيس، فتأخذ من قصتها ما يخدم غايتها حين تعبر في قصيدتها (بكائية على قبر امرئ القيس) عن افتقاد الشجاعة تحسرا منها على حال جيل اليوم:

لا سَيْفَ فِي اليَمِينِ
ولا فَارِسًا تَأْتِي بِهِ المرَاكِبُ
وَالعَمُّ وَالأَخْوَالُ، وَالجِيرَانُ
... تَحَوَّلُوا غِلْمَانْ
قُمْ، إِنَّنِي
يَا أَيُّهَا الأَمِيرُ مِنْ عُصُورٍ
أَبْحَثُ فِي المِدَاخِنِ
أَسْأَلُ كُلَّ جِيفَةٍ
أَيْنَ بَنُو أَسْدٍ؟[12].

ج– التراث الأسطوري:

وظف الشعراء الجزائريون الأسطورة تأثرا بالشعراء الغربيين الذين سبقوهم في هذا المجال، مثل: **ت س. إليوت** في (أرض اليباب) حيث تجلى واضحا المنهج الأسطوري الذي دعا إليه، ومن الأمثلة الشعرية الجزائرية الدالة على توظيف الأسطورة ما قاله **يوسف وغليسي** حين جمع بين أسطورتي السندباد والعنقاء، هذا الرحالة المغامر وهذا الطائر الذي تبعث فيه الحياة من الرماد بعد موته:

الآنَ شَيَّعَتْ الحُرُوفُ جَنَازَتِي
وَمَضَتْ تُعَانِقُ
وَأَنَا أَمُوتُ وَلا أَمُوتْ
كَالسِّنْدِبَادِ
فَأَنَا أَمُوتُ نَعَمْ
وَكَالعَنْقَاءِ أُبْعَثُ مِنْ رَمَادٍ[13].

د– التراث الأدبي:

من أمثلة التناص الأدبي في الشعر الجزائري الحديث قول الأمير **عبد القادر الجزائري**:

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي البَدْوِ تَعْذُرُنِي لَكِنْ جَهِلْتَ وَكَمْ فِي الجَهْلِ مِنْ ضَرَرِ[14].

فبيت الأمير الآنف الذكر فيه استدعاء واضح لبيتي **الخليل بن أحمد** حين قال:

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي أَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكَا
لَكِنْ جَهِلْتَ مَقَالَتِي فَعَذَلْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَا[15].

لم يُسْقِطْ شعراء الجزائر أنواع التراث الأخرى من قاموسهم الشعري، فهاهو القارئ مثلا يسجل حضورا مميزا للتراث الشعبي في القصائد الجزائرية من خلال استدعاء شخصياته المختلفة، ومن باب التمثيل لا الحصر نذكر بيت **محمد صالح باوية** الذي يستحضر فيه شخصية **حيزية**:

وَسَلْ حِيزِيَّةَ أَحْلَى العَذَارَى يَمُوتُ الحُبُّ فِي بِلادِي عَلامَا؟[16].

من أشهر الحكايات الشعبية التي أثرت في الشعر الجزائري وشعرائه نذكر: كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، تقول **مي غول** في قصيدة (مزاد شهريار):

ذَا شَهْرَيَارُ أَتَى بِالسَّيْفِ يُرْهِبُنِي أَيْنَ المَفَرُّ وَكُلُّ المَوْتِ لِي آتٍ؟
يَا شَهْرَيَارُ انْتَظِرْ يَكْفِيكَ مَا ذَبَحَتْ عَيْنَاكَ قَبْلِي أَنَا رَاحَتْ أُخَيَّاتِي[17].

2- ديوان "البحر يقرأ حالته" في سطور:

ديوان "البحر يقرأ حالته" للشاعر **علي ملاحي** مجموعة شعرية صدرت عن مؤسسة الجاحظية سنة 2011م، وقد زاوج الشاعر فيها ما بين الشعر العمودي والحر، مع الجمع بين الكتابتين في قصيدة واحدة اختار لها عنوان (البلابل تعتصر العنب). والملاحظ على هذا الديوان أنه يحمل عنوان أولى القصائد التي تصدرته (البحر يقرأ حالته)، والقصائد كلها نابعة من رؤية الشاعر ومواقفه من الحياة وما مر على وطنه الجزائر أيام العشرية السوداء التي تخضبت بدماء أبناء بلده. أما عن عناوين القصائد الأخرى فنذكر: (إلى الشهيدة لالا فاطمة)، و(الاعتراف)،

و(الاستنشاق)، بعضها مؤرخ وبعضها غير ذلك، فقصيدة (إلى الشهيدة لالا فاطمة) يشير تاريخ كتابتها إلى سنة 1984م بوهران، مثلها مثل قصيدتي: (الاعتراف) و(الاستنشاق)، على عكس (البحر يقرأ حالته) و(البلابل تعتصر العنب) المكتوبتين دون ذكر للتاريخ.

وعلى الرغم من أن تواريخ بعض القصائد –مثلما هو مشار إليها آنفا– قد كُتبت قبل عشرية الدم والدمار، إلا أن المتأمل فيها يستشف بُعْدَ نَظَرِ صاحبها ونظرته الاستشرافية العميقة، ذلك أن الشاعر قد تنبأ بقرب عشرية لا تبقي ولا تذر، بناء على أحداث لا تؤدي إلا لما تنبأ به، وهذا دليل حكمة الشاعر وحسن استقرائه للأمور وما يحيط بها، ناهيك عن محاكاتها تاريخ الجزائر الحافل بالبطولات والتضحيات.

يُعَدُّ العنوان بمثابة أولى العتبات التي تبدأ منها قراءة النصوص، لأنه يتضمن غالبا «من خلال طبيعته المرجعية والإحالية أبعادا تناصية، فهو دال إشاري، وإحالي يومئ إلى تداخل النصوص وارتباطها ببعض عبر المحاورة والاستلهام، ويحدد بالتالي نوع القراءة المناسبة له، ويعلن كذلك عن قصدية المنتج أو المبدع وأهدافها الإيديولوجية والفنية، إنه إحالة تناصية وتوضيح لما غمض من علامات، فهو إذن النواة المتحركة التي خاط المؤلف عليها نسيج النص.» [18].

إن البحر الذي يتحدث عنه الشاعر هو جزائر التسعينات التي تقرأ ما آلت إليه بآمالها وآلامها، بأفراحها وأقراحها، بأبطالها وأراذلها، بشرفائها وانتهازييها. جزائر متقلبة تقلب البحر بأمواجه الهادئة والعاتية، ونسائمه الخفيفة، ورياحه المخيفة. جزائر لم تدر يوما أنها ستدخل نفقا مظلما يقتل فيه الأخ أخاه، ويكفر الابن أباه. جزائر أكبر من كل هذا وذاك، تصبو لغد مشرق بعد أمس مرهق، وتبث الأمل والتفاؤل والصفاء والتسامح.

ينطلق الشاعر في ديوانه من تفجير لغوي تلخص شظاياه تجربته الشعورية الخاصة والمفعمة بالإيحاء والرمز، وهذا ليس بالشيء الجديد على الشاعر، فقد صرح

مرة أنه «لابد من التأكيد بأن شعرية اللغة تقتضي خروجها الفاضح عن العرف اللغوي النثري المعتاد، وكسر قواعد الأداء المألوف لابتداع وسائلها الخاصة، مما لا يستطيع النثر تحقيقه من قيم جمالية.» [19]. والقارئ لديوان (البحر يقرأ حالته) يلمس جليا تلك اللغة الشعرية التي تغري بالغوص في أعماق القصائد لِتَصَيُّدِ دررها، كما يجد القارئ نفسه مجبرا على إعمال ذهنه ليفهم دلالات الكلمات والأبيات ويستوعبها، يقول الشاعر:

بَلَدِي فِي يَدِي،،
وَيَدِي فِي يَدِي،،
بَلَدِي وَيَدِي، وَالعَصَافِيرُ يَا سَيِّدِي،
تمتَطِي العَاصِفَةَ. [20]

3- توظيف التراث في ديوان "البحر يقرأ حالته":

حفل ديوان "البحر يقرأ حالته" بتوظيف مكثف للتراث وأشكاله، وقد تراوحت أشكال التراث في الديوان ما بين: التراث الديني، ممثلا في الاستعانة ببعض الألفاظ والتراكيب القرآنية أو استدعاء بعض الشخصيات الدينية، والتراث التاريخي، متجليا في إحياء أحداث ماضية أو ذكر شخصيات وأمكنة تاريخية، والتراث الأسطوري، الذي يظهر من خلال القصص الأسطورية وأبطالها، والتراث الشعبي الماثل في توظيف شخصيات تراثية أو حكايات شعبية.

أ- التراث الديني:

يهيمن التراث الديني على بقية أشكال التراث الأخرى المعتمَدة في الديوان، والتوظيف من القرآن الكريم كان أحيانا مباشرا وصريحا، وكان في أحايين أخرى إشاريا وتلميحيا، ومن أمثلة التوظيف المباشر نذكر الأبيات التالية:

نَارُهَا حَامِيَةٌ
أَيْ... كَأَنِّي أَرَى صَرْصَرًا عَاتِيَةً
عَبْرَ قِنِّينَةٍ خَاوِيَةٍ،،،

وَالنَّيَاشِينُ أُرْجُوحَةُ الغَازِلِينَ عَلَى
ظَهْرِنَا لَبَنُ الطَّيْرِ...[21]

استند الشاعر في المقام الأول على الآية الكريمة:﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[22]، ومعنى ذلك أنها نار حارة تلفح الوجوه وتذيب العظام، واستند في مقام آخر على الآية الكريمة:﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهلِكُواْ بِرِيحٍ صَرصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[23]، ومعنى ذلك أنها ريح شديدة الهبوب والبرودة، أما عن الصورة المراد تقريبها لذهن القارئ هي أن الأهوال التي مرت بها البلاد كانت حارة وباردة جدا، وكلا النقيضين ضار ومهلك.

على الرغم من كل الأحزان التي عصفت ببلده الجزائر، يظهر الشاعر متفائلا إلى أبعد الحدود، مستبشرا بموعد الفرح القريب جدا حين يقول:

أَسْتَعِيدُ حَنِينِي إِلى بُلْبُلٍ
كَانَ لا يَسْتَحِي
أَنْ يُغَنِّيَ،،،
عَلَى كَتِفِ الشَّمْسِ مِيلادُ كُلِّ فَرَحٍ
قَابَ قَوْسَيْنِ قَوْسُ قُزَحٍ[24]

اعتمد الشاعر في هذه الأسطر على قوله تعالى:﴿فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَو أَدنَىٰ﴾[25]، ومعنى قاب قوسين: أدنى من ذراعين، وهنا يؤكد الشاعر على دنو ساعة اليسر وانفراج الأزمة، ولم يجد أحسن من هذه الصورة القرآنية المعبرة عن ذلك.

إذا انتقلنا إلى التراث الإشاري من القرآن الكريم، فإننا سنجد أنفسنا أمام أمثلة يطول المقام عن ذكرها، فانتقينا منها هذه الصورة الجميلة والمعبرة جدا، فحتى في وصفه للحالة المزرية التي آلت إليها البلاد بسبب اشتغال آلة الموت والدمار بانتظام، يفاجئ صاحب الديوان القارئَ بمشاعر الإكبار والإجلال التي يُكِنُّهَا لوطنه وشعبه، وهي نابعة من ثقته الكبيرة بأن الوطن سيقف على قدميه من جديد، وأن العتمة ستنجلي لأن هناك خطا نيرا يلوح في الآفاق، يقول الشاعر:

شَفَقٌ أَنْتَ يَا وَطَنِي

أَيُّهَا البَحْرُ..

يَا زَنْجَبِيلَ الحَضَارَاتِ الكَبِيرَةِ[26]. (الزنجبيل: نبات له نكهة طيبة، يقوي القلب).

إن أول كلمة في هذه الأسطر الشعرية تحيلنا مباشرة على الآية القرآنية:﴿فَلَا أُقسِمُ ٱلشَّفَقِ﴾[27]، والشفق معناه: شفق النهار إذا غابت الشمس.

إن النص القرآني مشبع بالشخصيات «التي قدمت أبعادا ورموزا ودلالات تراوحت على سبيل المثال ما بين ثنائية الإيمان والكفر، والخير والشر، والغنى والفقر، وما بين إبراز المواعظ والعبر للأمم السابقة.» [28]، وهذا ما وضعه الشاعر علي ملاحي نصب عينيه، كاشفا عن وعيه العميق بمضامينها وما ستقدمه في نصوصه الشعرية من ثراء وتنوع.

لقد استثمر الشاعر في الشخصيات التي تحمل صفات الخير والاستقامة والصلاح استثمارا إيجابيا، حين استحضرها وجعلها مركزا لكثير من المضامين التي أراد التعبير عنها، كشخصية **المصطفى** عليه الصلاة والسلام، « فقد كانت منزلة النبي **محمد** صلى الله عليه وسلم فوق كل المنازل، فلئن كان **موسى** كليما فقد صُعِقَ حين تجلى ربه للجبل، وقَرَّبَ الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم للنجوى ليلة المعراج دون أن يُصْعَقَ، ولئن كان المسيح أحيا الأجساد، فقد أحيا النبي بالقرآن موات النفوس...» [29]، وبمنزلة المصطفى العظيمة استدعى الشاعر اسمه واستحضر سنته، يقول الشاعر متبركا بالحبيب المصطفى ومعتزا بأبناء وطنه الذين اقتدوا بسنته:

وَطَنِي قَالَ لِلآثِمِينَ
عَلَى سُنَّةِ المُصْطَفَى
وَلَدِي
بَايِعْ النُّورَ فِي جَسَدِي[30].

من الأصفياء المذكورين في القرآن الكريم نمثل بشخصية **بلقيس** ملكة سبأ، التي ترمز للدهاء بعقلها المتزن، وحسن التدبير باستشارة قومها قبل الإقدام على

اتخاذ القرار، وهذه الشخصية بمواصفاتها المذكورة أثارت قريحة الشاعر علي ملاحي فأنشد في ديوانه قائلا:

هَذِهِ بَلَدِي
كَيْفَ أَدْخُلُ فِي سُوقِهَا وَجِلاً
مُتْعَبَ المِقْصِدِ
سَاحِلِي، قِيلَ بَلْقِيسُ مَرَّتْ عَلَيْهِ
فَعَادَ إِلَى رُشْدِهِ
وَغَدًا نَحْتَوِي وَطَنًا مِنْ ذَهَب[31].

يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن الحيرة التي تملكته وهو يتحدث عن وطنه الجزائر، كيف يدخل بلدَه وجلا وهو يعرف عنه الطمأنينة والسكون والهدوء؟، كيف يقضي حاجته في جو يسوده الاضطراب واللاأمن؟، وباستحضاره لشخصية بلقيس تنفتح الأبيات على دلالات جديدة، أهمها: طلب تغليب العقل وترجيح الحكمة كي تعود الأمور إلى نصابها، بل وأحسن. ومن الدلالات التي يحيل عليها ذكر هذه الملكة: جمالها وطمع الملوك والسلاطين في التقرب منها والفوز بها، وهذا حال الجزائر التي خصها الله عز وجل بالجمال والثراء، فكانت مطمعا للكثير من الدول.

من الشخصيات السلبية الوارد ذكرها في القرآن: **أبرهة الحبشي**، و**قابيل** ابن سيدنا **آدم** عليه السلام، فالأول فَكَّرَ ودَبَّرَ واهتدى إلى تدمير الكعبة المشرفة، والثاني هو أول من ارتكب جريمة قتل في تاريخ البشرية، ولم يكن المقتول سوى ابن أمه وأبيه. وتشترك الشخصيتان في صفة الحسد التي دفعتهما إلى ارتكاب أشنع الأفعال. يقول الشاعر مشبِّها الشعب الجزائري بالعصافير التي لا حول لها ولا قوة وهي تواجه شتى أنواع المصائب التي تريد أن تفتك بها:

يَا لِهَذَا المدَى ذُبِحَ النُّورُ حِينَ تَأَرْجَحَ بَيْنَ
صَلِيلِ السُّيُوفِ
وَمِطْرَقَةِ اللَّيْلِ

مُنْكَسِرَ العُمْرِ
مُمْتَلِئًا فِي شَوَاطِئِهِ
بِشَظَايَا زَمَانٍ تُكَابِدُ فِيهِ العَصَافِيرُ
نِيرَانَ أَبْرَهَةٍ
وَخَطِيئَةَ قَابِيلٍ[32].

ب– التراث التاريخي:

كان للتراث التاريخي بأبعاده المختلفة (أحداث، شخوص، أمكنة) حضوره الملموس في ديوان "البحر يقرأ حالته" لعلي ملاحي. ولما كانت الحالة الشعورية هي التي تفرض استحضار أحداث تاريخية معينة، انتقى لنا الشاعر من تاريخ الجزائر المرير حادث مقتل الرئيس الجزائري **محمد بوضياف**، لتأثيره في نفسية الجزائريين بشدة، وكونه أكثر الأوقات العصيبة التي مرت على الجزائريين في تاريخهم الحديث. والحادثة تؤكد أن يد الإجرام في الجزائر كانت طويلة جدا بدليل امتدادها حتى رئيس الجمهورية، وأن كل الجزائريين ليسوا في مأمن منها. وهكذا لم يشارك الرئيس المقتول في تحرير الجزائر من الإرهاب الأعمى، «... للأسف كان حلم الإنقاذ هذه المرة قاتلا، عكس حلم الاستقلال الذي نشأ عليه الفقيد وأمثاله من رواد الوطنية.» [33]، يقول الشاعر:

طَارَتْ إِلَيْهِ الرَّصَاصَةُ،
طَارَ إِلَى رَبِّهِ،
وَالعَصَافِيرُ طَارَتْ إِلَى رُوحِهِ
وَالبِلادُ التِي غَرَّدَتْ يَوْمَ مِيلادِهِ
كَتَبَتْ بِاسْمِهِ جَدْوَلا[34].

سجلت الشخصيات التاريخية حضورها في ديوان "البحر يقرأ حالته"، وقد استطاع الشاعر من خلالها أن ينقل لنا أفكاره وأحاسيسه، ومن جملة الشخصيات التاريخية الموظفة في الديوان انتقينا شخصية القائد العربي **طارق بن زياد**، فاتح

الأندلس ومخضع القبائل لحكم المسلمين، ومن الجميل أن نلمس تفاؤل الشاعر واستبشارَه بالخير في زمان لا يبشر بذلك، يقول علي ملاحي:

قِيلَ هَذَا الزَّمَانُ الخُرَافِيُّ لا يَنْتَهِي
وَابْنُ زِيَادٍ عَادَ إِلَى يَثْرِبِ
يَا هَلا، وَالنُّبُوَّةُ طَارَتْ إِلَى المِغْرِبِ[35].

مَثَّلَ المكان بأبعاده المختلفة رافدا آخر من الروافد الصافية التي نهل منها شاعرنا مادته المعبرة عن انفعالاته وأحاسيسه تجاه وطنه، حيث نجده يذكر أماكن ومدن كثيرة مليئة بالدلالات لما تختزنه من حمولة إيحائية ارتسمت في ذهن القارئ العربي، نذكر منها: الفردوس المفقود (الأندلس) بما فيها من مدن كغرناطة وقرطبة، والألم الذي خلفه سقوطهما في يدي الإسبان، هذا الألم الذي وجد فيه الشاعر صورة طبق الأصل لما عاشته الجزائر أيام عشريتها السوداء، ، يقول الشاعر:

وَاشْتَرَانِي بِكِلِّ اللُّعَبِ...
بَاعَنِي،
ثُمَّ زَايَدَ فِي لَبَنٍ
كُنْتُ أَحْسَبُهُ ثَدْيَ غَرْنَاطَة
أَوْ فَضَا قُرْطُبَة[36].

ج- التراث الأسطوري:

لقد استلهم الشاعر علي ملاحي في ديوانه بعض الأساطير القديمة ووظفها في سياق قصائده، خاصة الأساطير الإغريقية وأبطالها وشخوصها، بهدف تعميق رؤيته المعاصرة والتعبير عن أزمة الفرد الجزائري تعبيرا فنيا انطلاقا من تجربة الشاعر المستقاة من الواقع الجزائري. يقول الشاعر مستحضرا أسطورة **سيزيف** المعبرة عن الإدانة المطلقة والفشل الأزلي:

رَيْثَمَا تَنْتَقِي الأَرْضُ سِيزِيفَهَا
قَالَ أَخِي ضَاقَتْ الأَرْضُ بِي

وَتَكَسَّرَ فِي مُهْجَتِي
لُؤْلُؤٌ وَمَحَّارُ[37].

من المواد الأسطورية الموظفة من قبل الشاعر علي ملاحي في ديوانه نذكر: حرب طروادة، وهي واحدة من أشهر الحروب في التاريخ، خَلَّدَتْ اسمها ببطولات أصحابها واستبسال أهل طروادة في الدفاع عن المدينة بحصونها المنيعة وجيوشها القوية، ولم يتمكن اليونانيون من دخول المدينة إلا بعد فكرة الحصان الخشبي الشهيرة، يقول الشاعر:

يَا دَمِي إِنَّ طَرْوَادَةَ فِي حِصَارٍ
وَالفَضَاءُ اسْتَوَى لِلْغُبَارِ
وَالسَّمَاءُ انْشَوَتْ وَادْلَهَمَّ النَّهَارُ
.....[38].

يهدف الشاعر من خلال هذا التوظيف الأسطوري إلى الرمز للجزائر بمدينة طروادة التاريخية، فمثلما تُعَبِّرُ هذه الأخيرة عن الصمود والتضحية والتحدي والوقوف في وجه الزحف اليوناني، استطاعت الجزائر أن تقاوم الاحتلال الفرنسي لسنوات وسنوات، لتظفر في الأخير باستقلالها ونيل حريتها. وتتلاقى طروادة والجزائر في الجرائم والإبادة الجماعية التي قام بها المحتلون بمجرد دخولهم المدينتين.

د– التراث الشعبي:

يشغل التراث بكل مكوناته الحيز الأكبر من ذاكرة الشاعر، هذا الأخير الذي يعمد إلى تقليده حتى يصير لحمة واحدة مع نصوصه، فتُعكس الحوافز بعضها على بعض، ويقوم الزمن بتلحيمها حتى يتمنع فكها مهما بلغت العزائم، لأنها حوافز نُقِشَتْ من قَبْل في جبين الزمن قبل أن تُنقش في أذهان الأدباء وقلوبهم. والأدباء يختلفون أيما اختلاف في تناولهم للمادة الخام وكيفية تسخيرها وطريقة استلهامها، لأن كل أديب يتعامل تعاملا خاصا مع المادة الأم، فله القدرة على

ابتكار شفرته الخاصة التي تحمل خصائص أسلوبه في النص الذي يكون قابلا للتجديد والتغيير[39].

استلهم الشاعر علي ملاحي في مجموعته الشعرية من التراث الشعبي الجزائري بعض العادات والتقاليد، كالتبرك بأولياء الله الصالحين، ولنا في الأبيات التي يذكر فيها سيدي **أحمد بن يوسف** –ولي مدينة مليانة الصالح– مثال على ذلك، يقول في أبياته:

وَيَا سِيدِي يُوسُفَ الحَلُّ فِي رُؤْيَتِكَ..
وَأَنْتَ اعْتِرَافُ القُلُوبِ..
وَمِرْآتُنَا الأَصْلُ..
أَنْتَ انْفِرَاجُ الأَسَارِيرِ عَبْرَ يَبَاسِ الرُّؤَى
فَاكْشِفْ كُلَّ أَحْزَانِنَا وَاعْتَرِفْ..[40]

يظهر الشاعر في أبياته متأكدا من أن انفراج الأزمة يكون بالعودة إلى أولياء الله الصالحين والتقرب منهم، لأنهم أصحاب الكرامات الذين يفترض اللجوء إليهم وقت الشدة، ناهيك عن أن الأصالة تظهر فيهم متجذرة، في وقت تصلبت فيه الرؤى وطبع اللغو والتشدد على العقول والقلوب، وعلى هذا الأساس لا ملجأ ولا منجى لبث الهموم والأحزان إلا هؤلاء الأولياء الذين يفرجون كربة المهموم.

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في ديوان "البحر يقرأ حالته" للشاعر علي ملاحي، نصل إلى محطتنا الختامية التي أردناها حوصلة للنتائج المتوصل إليها على مدار هذه الورقة البحثية، ونلخصها كالآتي:

1- يعد توظيف التراث في الشعر من أقدم الظواهر الفنية التي اتسم بها هذا الجنس الأدبي.

2- سجل التراث -بأشكاله المختلفة- حضورا لا بأس به في الشعر الجزائري.

3- أحالت الأشكال التراثية المختلفة في ديوان "البحر يقرأ حالته" على الثقافة العميقة التي يحوزها الشاعر، وحُسْنُ توليده للمعنى المعاصر بآليات وأدوات إجرائية قديمة دليل على امتلاكه للموهبة الفنية.

4- هيمن التراث الديني على القصائد المشكِّلة للديوان، وهذه الهيمنة ترسم للقارئ صورة واضحة عن تكوين الشاعر وخلفيته الفكرية والمعرفية التي انطلق منها لصياغة قصائده.

5- لم تبلغ أشكال التراث الأخرى ما بلغه التراث الديني، لكنها في المقابل فتحت بابا مشرعا على تعدد المعاني والدلالات في الديوان، وكانت مكملا للتراث الديني والمعاني المراد التعبير عنها.

6- توظيف التراث بهذه الكثرة يؤكد موقف الشاعر الصريح من العودة إليه وبناء الحاضر والمستقبل انطلاقا منه.

هوامش:

[1] حسن البنداري وآخرون. التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر. مجلة جامعة الأزهر بغزة. سلسلة العلوم الإنسانية. المجلد الحادي عشر. ع2. 2009م. ص 246-247.

[2] علي عشري زايد. استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر. دار الفكر العربي. القاهرة. دط. 1997م. ص 209.

[3] رمضان الصباغ. في نقد الشعر المعاصر (دراسة جمالية). دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. مصر. ط1. 2002م. ص 344.

[4] عز الدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية). دار الفكر العربي. مصر. ط3. دون تاريخ. ص 311.

[5] ينظر. عمر عيلان. الإيديولوجيا وبنية الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة (دراسة سوسيوبنائية). الفضاء الحر. الجزائر. دون طبعة. 2008م. ص 42.

[6] علي عشري زايد. استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر. ص 190.
[7] مفدي زكريا. اللهب المقدس. موفم للنشر. الجزائر. 2009م. ص18.
[8] سورة طه. الآية: 72.
[9] محمد العيد آل خليفة. الديوان. موفم للنشر. الجزائر. 2010م. ص 453.
[10] سورة المزمل. من الآية: 20.
[11] سليمان جوادي. قصائد للحزن وأخرى للحزن أيضا. منشورات الأرتيستيك. الجزائر. ج2. ط1. 2009م. ص 15.
[12] أحلام مستغانمي. على مرفأ الأيام. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط1. 1972م. ص 73.
[13] يوسف وغليسي. أوجاع صفصافة في مواسم الإعصار. إصدارات إبداع. الجزائر. 1995م. ص 86.
[14] الأمير عبد القادر الجزائري. الديوان. جمعه وحققه: العربي دحو. منشورات تالة. الجزائر. ط3. 2007م. ص 50.
[15] أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد. حققه وشرحه: محمد التونجي. دار المدار الثقافية. البليدة. المجلد الثاني. ط1. 2009م. ص 186.
[16] صلاح الدين باوية. إلياذة وادي ريغ. منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين. الجزائر. ط1. 2009م. ص27.
[17] مي غول. ديوان (عنكبوت في دمي). المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر. 2007م. ص 60.
[18] محمد الصالح خرفي. فضاء النص، نص الفضاء (دراسة نقدية في الشعر الجزائري المعاصر). منشورات آرتيستيك. الجزائر. ط2. 2007م. ص57.
[19] علي ملاحي. شعرية السبعينيات في الجزائر (القارئ والمقروء). منشورات التبيين. الجاحظية. الجزائر. دط، 1995م. ص 38.
[20] علي ملاحي. البحر يقرأ حالته. مؤسسة الجاحظية. الجزائر. 2011م. ص 32.
[21] المصدر نفسه. ص 52.
[22] سورة القارعة. الآية: 11.
[23] سورة الحاقة. الآية: 06.
[24] علي ملاحي. البحر يقرأ حالته. ص 57.
[25] سورة النجم. الآية: 09.
[26] علي ملاحي. البحر يقرأ حالته. ص 21.

[27] سورة الانشقاق. الآية: 16.

[28] حسين منصور العمري. إشكالية التناص (مسرحيات سعد الله ونوس أنموذجا). دار الكندي للنشر والتوزيع. إربد. الأردن. ط1. 2007م.ص 144.

[29] محمود بن حمزة بن نصر الكرماني. نوادر التراث (أسرار التكرار في القرآن). دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع. تونس. ط1. 1983م. ص 07.

[30] علي ملاحي. البحر يقرأ حالته. ص 70.

[31] المصدر نفسه. ص 33-34.

[32] م نفسه. ص 30.

[33] محمد عباس. اغتيال... حلم (أحاديث مع بوضياف). دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. 2009م. ص 309.

[34] علي ملاحي. البحر يقرأ حالته. ص 79.

[35] المصدر نفسه. ص 33.

[36] م نفسه. ص 63.

[37] م ن. ص 65.

[38] ينظر. م ن. ص 55.

[39] ينظر. جمال مباركي. التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر. إصدارات رابطة الإبداع الثقافية. الجزائر. 2003م. ص 311.

[40] علي ملاحي. البحر يقرأ حالته. ص 92.